الشّعر المغربي في عهد العثمانيّين
دراسة في شعر المقّري التّلمساني

الأستاذ: بلقاسم رفرافي
قسم الأدب واللغة العربية
جامعة عبد الرحمن ميرة ـ بجاية

ملخـــص:

يتناول هذا المقال شخصيّة أدبيّة من زوايا مختلفة، تاريخية وثقافية، وفنية. إذ يعالج المحور الأول حياة المقّري، والمحور الثاني مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة، أما البعد الأخير فقد تناول الموضوعات والأغراض الواردة في شعره. و عليه كيف تمكّن المقّري من معالجة هذه الأغراض والموضوعات ومدى التوفيق في عرضها وتمثيلها في أشعاره؟

Résumé :

On jette de la lumière sur la vie littéraire d'AL-MAKRI tout en passant par l'historique, le culturel et l'esthétique.

D'ici , cet article traite ses axes en général puis on passe vers les thèmes poétiques abordés.

يمثّل العهد العثمانيّ حقبة عامّة من تاريخنا السياسي والثقافي لأنه شهد أعلاما في فنّ الشعر والنثر تفاعلوا مع أحداثه، إلا أن هذه الفترة لم تثر حماس الباحثين في الكشف والتصفح ولاسيما في المغرب العربي على اعتبار أنه يمثل عصر الانحطاط والضعف وهذه منقصة للعصر وأدبائه، فقد فند هذا الحكم أحد أعلام هذه الفترة الأديب الجزائري أحمد المقري التلمساني. لذا جاءت دراستنا حول هذا الأديب قصد إعادة الاعتبار لأعلامنا الذين أهملوا عن قصد، أو عن قلة التنقيب والبحث في التراث المغربي.

فالمقري التلمساني بز أقرانه وشيوخه، وعمّت آثاره العلميّة بلاد المغرب والمشرق ومختلف أرجاء المعمورة.

يعالج هذا الموضوع ثلاثة جوانب، منها ما يتعلّق بتعريف الشّاعر أحمد المقّري الذّي عاش في القرن الحادي عشر الهجريّ. ومنها ما يتعلّق بالمؤلّفات المتنوعة التّي تركها لنا. وأخيرا دراسة الأغراض الشّعريّة المتنوّعة التّي تناولها: حنين وشوق، ومديح وزهد وإخوانيّات.

أولا: نبذة عن المقّري

هو أبو العبّاس شهاب الدّين أحمد بن محمد المقّري التّلمسانيّ، من أعلام الفكر العربي في الجزائر أثناء العهد العثماني، شخصية متميزة فكريا، توزع هواها بين أقطار العروبة مشرقا ومغربا. تعود أصول عائلته إلى قرية (مقّرة) بالقرب من مدينة المسيلة حالياً. انتقل جدّه الأعلى إلى تلمسان واستقرّ بها، وفيها ولد أبو العبّاس المقّري حوالي عام 986هـ[1]. درس على يد عمّه الشّيخ سعيد وغيره من علماء عصره بتلمسان. انتقل إلى مدينة فاس المغربية سنة 1009هـ. أين ولّي بها منصب الإمامة والخطابة عام 1013هـ وقد اتّخذ من فاس دار إقامة له ولبث بها حتّى عام 1027هـ، قضّى كل هذه المدّة متجوّلاً بين مرّاكش، أين استقبله السّلطان المنصور السّعدي غاية الاستقبال. ولما اشتدّت الفتن السياسية بالمغرب الأقصى.

هاجر إلى مصر سنة1027هـ ثمّ قصد مكّة حاجّا وجاور بالمدينة المنوّرة، ثمّ عاد للاستقرار بأرض الكنانة سنة 1029هـ وجعلها مرتكزا لرحلاته إلى الشّام والحجاز والقدس. وأعجب بدمشق ومكث فيها مدة.

عاد إلى مصر واستمرّ يمارس التّدريس وملازمة العلم والعلماء إلى أن وافته المنيّة هناك عام 1041هـ.

ثانيا: آثـــــاره

للمقّري مؤلّفات كثيرة قاربت الثّلاثين على ما ذكر هو بنفسه في قوله[2]: (الرجز)

وَلِي تآليفٌ على العِشْر ينَا زادتْ ثمانيًا حَوَتْ تعنينَا

فلْيروِها إنْ شَا بلا استثناءٍ واللهَ أرجُو نيْلَ قصْدَ نائِي

إن هذا الكم الهائل من المؤلفات يدلّ على اتّساع معارفه، فقد بدا للمختصّين حاملا صولجان التّثر، رفيع الذّوق في انتقاء الموضوعات مثقّفا ثقافة واسعة، مصنّفا من الفئة الأولى بين كبار الأدباء والكتّاب، كثير الميل إلى الفكر والأدب والتّاريخ.

وله أيضا شعر هو بين الجودة والضعف. وتصانيفه متعدّدة التّواحي تتناول معارف عصره، و تعدّ من أمّهات الكتب العربية والإسلاميّة، وهي:

1- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطيب: موسوعة أدبيّة تاريخيّة أرّخ فيها لبلاد الأندلس وحضارتها الإسلاميّة من شتّى جوانبها السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والعمرانيّة والثقافيّة، وخاصّة الأدبيّة منها، خلال فترة الوجود الإسلاميّ بها منذ الفتح حتّى السّقوط. ودوّنه يوم الأحد 27 رمضان1038هـ بالقاهرة، ثمّ ختمه في آخر أيّام 1039هـ. و قسّمه إلى قسمين: الأوّل يتعلّق بالأندلس، وفيه ثمانيّة أبواب. والثّاني في التّعريف بلسان الدّين بن الخطيب، و فيه أيضا ثمانيّة أبواب.

2 - إتحاف المُغرى في تكميل شرح الصُّغرى: وموضوعه العقائد، وتاريخ تأليفه سنة 1028هـ بثغر الإسكندرية.

3- أزهار الرّيّاض في أخبار عيّاض: وقسّمه إلى روضات أزهار في ثمانيّة أبواب. وقد عرّف فيه بالعالم المغربيّ الجليل القاضي عياض، كما عرّف ببعض علماء عصره. ومنه نسخ

مخطوطة ومطبوعة في مكتبات العالم. وتاريخ تأليفه ما بين 1013هـ و1027هـ.

4 - أزهار الكمامة في أخبار العَمامة: وموضوعه أدب نبويّ ذكر فيه ألبسة الرّسول(ص) لاسيَما عمامته. أتمّ تأليفه في المدينة المنوّرة سنة 1033هـ.

5– المزدوجة: وهي قصيدة طويلة في الغزل، جمعها الشّيخ محمود أفندي مع مزدوجات أخرى. وقد تمّ طبعها بالمطبعة الأزهريّة الحجريّة سنة 1299هـ.

6- إضاءة الدّجنة في اعتقاد أهل السنّة: وهو نظم لكتاب العقائد السلفيّة، يوجد منه نسخ مخطوطة في القاهرة وغيرها من العواصم الإسلاميّة والغربيّة. وتمّ شرحه من طرف عدّة علماء كالدّاء الشّنقيطي وعبد الغني النابلسيّ. أنهى كتابته سنة 1036هـ بالقاهرة.

7- إعمالُ الذّهن والفكر في المسائل المتنوّعة الأجناس، الواردة من سيدي محمّد بن أبي بكر بركة الزّمان وبقيّة النّاس: وموضوعه عقائد وفقه، وهي أجوبة عن أسئلة الشّيخ محمّد الدّلائيّ التّي وجّهها إليه من الزّاوية الدّلائيّة أيّام أن كان المقّري مقيما بالقاهرة. وتاريخ تأليفه 1041هـ بالقاهرة.

8- الجُمانُ في مختصر أخبار الزّمان: ترجم إلى اللّغة الفرنسيّة سنة 1788م.

9- حاشيّة على شرح أمّ البراهين للسنوسيّ: موضوعه العقائد.

10- حسنُ الثّنا في العفو عمّن جنى: موضوعه أدب السّلوك من خلال الأحاديث النبويّة والآيات القرآنيّة منه نسخة مخطوطة في القاهرة، وطبع بالهند.

11- رفعُ الغلط عن المخمّس الخالي الوسط: وهو منظومة موضوعها خطّ الرّمل والزايرجة وعلم النّجوم والطّلاسم. منه نسخة مخطوطة في القاهرة.

12- روضةُ الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مرّاكش وفاس: ويشتمل على قسمين: الأوّل على مقدّمة وثلاثة أبواب، والثّاني على أربعة وثلاثين اسمًا من أسماء العلماء والأدباء الذّين لقيهم أثناء وجوده بمرّاكش وفاس. وجعل قطب دائرته السّلطان المنصور السّعدي. وتاريخ تأليفه مابين 1011هـ و1013هـ.

13- فتحُ المتعال في مدح النّعال: أحاط فيه صاحبه بكل ما تعلّق بموضوع نعال الرّسول من حديث ولغة، وشعر، وسيرة، وتاريخ، ووصف للنّعال، وبيان لأوضاعها وأشكالها عند

المشارقة والمغاربة. أصل الكتاب بَدَأَه وأنهاه في سنة 1033هـ بالقاهرة. للكتاب نسخ مخطوطة ومطبوعة منتشرة في بلاد المشرق والمغرب.

14- التفحاتُ العنبريّة في نعل خير البريّة: وقد ضمّ ألوانا من النّثر والشّعر، منه نسخة مخطوطة في المغرب، وفي بعض الدول العربيّة والإسلاميّة. وأنهى كتابته سنة 1030هـ بالقاهرة.

15- نيلُ المرام المغتبط لطالب المخمّس الخالي الوسط: يتضمّن313 بيت رجز موضوعها إعداد مربّعات الطّلسمات ذوات الحقول الخماسيّة المخمّسة خالية الوسط. منه نسخة مخطوطة ببرلين والإسكندرية.

وله مؤلّفات أخرى ذكرتها بعض المصادر إلاّ أنّها مفقودة.

ثالثا: أغراضه الشّعريّة

برع المقّري في نظم الشّعر كما نبغ في كتابة النّثر، ولقد تطرّق إلى كثير من الموضوعات الشّعريّة المعروفة في الأدب العربيّ، فنظم في الحنين إلى الوطن كما نظم في الغزل، والمدح، والإخوانيّات...

كان معظم شعره مرآة لأمور حياته الخاصّة من خلال ما جادت به قريحته، ولهذا نستطيع أن نعدّ شعره سفرا يؤرّخ ما مرّ به من حوادث وما اعترضه من مواقف، وسجلاّ حافلاً بمشاعره يعرض الفرح تارة والحزن تارة أخرى. فتنوّعت أغراض قصائده وكثرت في مواضع، وقلّت في آخرى.

ولذلك سنعرض ما جاء منها في شعره مرتّبة حسب كثرتها وشيوعها.

1- الحنيـــــن إلى الوطـــــن

إنّ الحنين إلى الوطن شعور عاطفيّ ووجدانيّ دائم يتولّد لدى الإنسان كلّما أدرك بُعده عن ثرى الوطن لأيّ سببٍ من الأسباب. وهو شعور خاصّ لا يضاهيه أيّ نوع آخر من المشاعر البشريّة، لذا لا يستطيع أن يدرك كنهه أو يتحكّم في مداه أو يصفه إلاّ من عاشه وألمّ به. والمقّري من الشّعراء الذّين اكتووا بنار الغربة وألم الفراق وحرارة الشّوق.

وقد أحسّ بالحنين إلى الوطن، ليس لأنّه شعور خفيّ غير محسوس، وإنّما لأنّه شعور

تلقائيّ وطبيعيّ تتقاطع فيه مشاعر متباينة ومتداخلة في ذات اللّحظة، حتّى ليكاد يعجز الإنسان عن السّيطرة على انفعالاته؛ لأنّها مشاعر تتداخل فيها لحظات شوق دائم إلى البدايات الأولى و الذّكريات القديمة.

يرى الدّكتور أبو القاسم سعد الله أنّ أحمد المقّري يعدّ أوّل المثقّفين الجزائريّين الذّين عالجوا الحنين إلى الوطن، ونظر إلى الجزائر كقطر لا كمدينة[3]، ويظهر ذلك في قوله[4]:(الكامل)

بلدُ الجزائر ما أمرَّ نواها كَلِفَ الفؤادُ بحبّها وهواها
يا عاذلي في حبّها كُنْ عاذري عاذري يكفيكَ منها ماؤُها وهواها

وقال [5]: (البسيط)

لم أنْسَ معهدَنا والشّمْلُ مُجتمِعٌ والعيْشُ غَضٌّ ورَوْضُ الأُنْسِ مِعطارُ
فهَا أنَا بَعْدَ بُعْدٍ عنهُ في قلقٍ وقد نَبَتَ بِي أرجاءٌ وأقطارُ
تمضِي اللّيالي وأشواقي مُجدّدةٌ وما انقضتْ لي مِنِ الأحبابِ أوطارُ

وممّا عبّر به عن حنينه إلى أبناء وطنه، قوله[6]:(البسيط)

إذا ظفرتُ مِنَ الدّنيا بقُربِهِمُ فكلّ ذنبٍ جناهُ الدّهرُ مغفورُ

وقال متشوّقا بعد الذّكرى[7]:(الكامل)

ولنَا بهاتيكَ الدّيار مواسمٌ كانتْ تُقامُ لطيبهَا الأسواقُ
فأبَانَنَا عنها الزّمانُ بسرعةٍ وغدتْ تُعلّلنَا بها الأشواقُ

وبعد أن غلب عليه الشّوق والتّخمين، قال[8]: (الرمل)

بأبِي مَنْ أوْدعوا مُذْ وَدّعوا قلبِيَ الشّوقَ وللعِيسِ ذميلُ
جيرةٌ غُرٌّ كرامٌ خيرةٌ كُلّ شيءٍ منهمُ يبدو جميلُ

وما يلاحظ عن الشّاعر في حنينه وشوقه، أنّه يتمثّل بالشّعراء القدماء الذين حنّوا إلى أوطانهم واشتاقوا إلى مآثر طفولتهم. وقد صاغ أحاسيسه وأفكاره صوغا تترابط فيه عناصره بوحدة شعورية وذهنية.

2- الوصـــــف

هو الشّعر، بل هو الفنّ في رحب مداه وطلق أبعاده، كما رأى أفلاطون. وإنّه حكاية الإبداع، فما يأصل فيه ويبدع، إلاّ من تأصّلت ملكة الفنّ عنده. والوصف يصدر عن صفاء وجدان وتألّق خيال، وتدفّق عاطفة. وإذا الأشخاص غير الأشخاص، والأشياء غير الأشياء، وإذا الحياة وهّاجة، والصّور أحياء تطلع من عالم جديد، وتكون مع الفنّ في أوهاه، بل مع الوجود وقد صار أروع في الحياة والوجود.

ومن أنواع الوصف عند المقّري، وصف المدن.

ومن المدن التّي وصفها الشّاعر وهام بها، المدينة المنوّرة التّي حاول أن يضفي عليها مسحة دينيّة، تبرّكا بها وبصاحبها محمّدا (ص)، يقول فيها[9]: (الطويل)

إذا لمْ تطِبْ في طيبةَ عند طيبِ به طيبةٌ طابتْ فأين تطيبُ
وإ ن لم يُجِبْ في أرضِها ربُّنا الدُّعا ففي أيّ أرضٍ للدُّعاء يجيبُ
أيا ساكني أكنافَ طيبة كُلُّكم إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

تلاعب الشّاعر بالمحسّنات البديعيّة على طريقة أدباء عصره إذ أعاد في هذا البيت مشتقّات كلمة (طيبة) ستّ مرّات. وهذا من باب الجناس الذّي أكثر منه في نثره كما استعمله هنا في شعره أيضاً.

و اهتمّ بوصف الطّبيعة الطّبيعيّة ومن ذلك وصفه هبوب الرّيح في قوله [10]: (الطويل)

كأنّ أكُفّ الرّيح تكتبُ أسطرًا على النّهر إلاّ أنّ أحرفَها زُرْقُ
فتحنِي عليهنّ الغصونُ قُدودَها لتقرأها جهْرا مِنَ الوَرَقِ الوُرْقُ

المتأمّل في هذه الصّورة البديعة يلاحظ تشخيص الشّاعر للطّبيعة على شكل فتّان يستهويه فنّ الرّسم على الماء.

ويلاحظ كيف استطاع الشّاعر أن يمزج بين الطّبيعة الجامدة والطّبيعة الحيّة، وبأيّ طريقة؟ وكأنّ الشّاعر افتتن بالأندلسيّين فغنّى على قيثارتهم، وأعجب بالمشارقة في جمال العبارة وجودة السّبك.

وأجاد في وصف جمال المنازل معتمدا الصّورة التّشبيهيّة، قائلا [11]:(الخفيف)

مَنْزِلٌ كالرَّبيع حلّتْ عليه حالياتُ السّحاب عِقْدَ النّطاق

يُمتِعُ العينَ من طرائِقِ حُسنٍ تتجافى بها عن الإطراق

إنّها رومانسيّة لا يحسن التّعبير عنها إلاّ أصحاب الإحساس المرهف، والمتخيّل البعيد، والنّفوس التوّاقة إلى كلّ ما هو جميل.

3- المديـــــح

احتلّ فنّ المديح في مدوّنة الشّاعر حيّزاً كبيراً إلى جانب الأغراض الشّعريّة الأخرى، حيث عبّر في مدائحه عن مشاعره وعواطفه التّي نبعت من أعماق قلبه تجاه النبيّ (ص)، وأصدقائه إذ أظهر فيها محامدهم، ومفاخرهم كما نشر فيها طراز محاسنهم، ناثراً لآلئ أوصافهم في المجالس والمحافل.

من حسنات المقّري أنّه عرف عنه مدح الوجهاء لا الأمراء إلا ما جاء استثناء، وتمحورت قصائده في المديح حول موضوعين أساسيين:

أ ـ المديـــح النّبـــويّ:

كثرت المدائح النّبويّة في شعر المقّري، إذ أعطاها روحه وقلبه، وصوّر فيها حبّه السّرمديّ للرّسول(ص). وقد بثّها في ثنايا مؤلّفاته الجديدة كـ(فتح المتعال) و(أزهار الكمامة).

وله طائفة من القصائد النّبويّة نظمها إمّا توسّلا بالنّبيّ حين متّع ناظريه بزيارة الرّوضة الطّاهرة في المدينة المنوّرة، وإمّا مدحا للنّبيّ على نحو ما كان يفعل شعراء المدائح النّبويّة في العصور المختلفة.

وقد تنقّل في مدائحه النّبويّة بين ترجمة لسيرته(ص)، ووصفه للأماكن المقدّسة، وتصويره ما يختلج في صدره من حنين.

ومن ذلك قوله[12]: (الكامل)

هذا الرّؤوفُ بجاره ونَزيلِهِ هذا سراجُ اللهِ في تنزيلِهِ
هذا الذّي لاريبَ في تفضيلهِ هذا حبيبُ الله وابنُ خليلهِ

نلاحظ في هذا النّص تناصّا، إذ تأثّر المقّري بقول الفرزدق- كما هو شائع- حين قدم هشام بن عبد الملك للحجّ برفقة حاشيّته وقد كان معهم الشاعر الفرزدق.

وكان البيت الحرام مكتظاً بالحجيج في تلك السّنة، ولم يفسح له المجال للطّواف فجلب له متّكأ ينتظر دوره. وعندما قدم الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين بن أبي طالب عليهم السّلام انشقّت له صفوف النّاس حتّى أدرك الحجر الأسود فثارت حفيظة هشام وأغاضه ما فعلته الحجيج للإمام عليّ فسأله أحد مرافقيه، فقال هشام بن عبد الملك لا أعرف!؟

فأجابه الفرزدق بقصيدة منها هذه الأبيات، وهي من أروع ما قاله[13]: (البسيط)

هذا الذي تعرفُ البطحاءُ وطأتَه والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كُلّهمُ هذا التّقيّ النّقيّ الطّاهرُ العَلَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهِلهُ بجدّهِ أنبياءُ اللهِ قدْ خَتمُوا

وله قصيدة ميميّة نبويّة جيّدة الصّياغة، حسنة السّبك، يقول فيها[14]: (الخفيف)

ليسَ كُلّ القريضِ يقبلُه السّمْـ ـعُ وتُصغي لذكرِهِ الأفهامُ

إلى أن يقول: (البسيط)

فعليهِ مِنْ ربّهِ صلـواتٌ زاكياتٌ مع صحبهِ وسلامُ

ب ـ المديح العـام:

ومن المديح العامّ عند المقّري، ما قاله في عمّه سعيد المقّري[15]: (الرجز)

وقد أخذتُ جامِعَ البخاري عَنْ عمّي الحائزِ للفخارِ

الحافظُ المبجّلُ العراقي وقد سَما في سُلّمِ المراقِي

وهما بيتان من إجازة علميّة للمقّري، يشير فيهما أنّه أخذ صحيح البخاري عن عمّه سعيد.

ومن الشّخصيّات التي مدحها أيضا، لسان الدين بن الخطيب، الّذي يقول فيه [16]: (الكامل)

أوَ ليسَ مثلي قاصِرًا عَنْ وصْفهِ؟ والحَق نورٌ واضحٌ للمهتدِي

من خلال هذا الانزياح الاستفهاميّ نجد الشّاعر يريد أن يبرز المكانة الرفيعة والساميّة لممدوحه.

ويلاحظ في شعر أحمد المقّري الّذي مدح به أصدقاءه من العلماء والأدباء، أنّه يتّسم بالصّدق والإخلاص، ومثال ذلك قوله في مدح القاضي عيّاض [17]: (الوافر)

سلامٌ مِثْلُ عُرْفِ المِسكِ طِيبًا وحُسنًا مِثْلُ أزهارِ الرّياضِ

على لفظِ الجلالةِ والمعالِي إمامُ الدّينِ والدّنيَا عياضِ

نلمس في هذين البيتين بساطة الألفاظ، وإحكام العبارات، وعذوبة الأسلوب، ممّا ساهم في هذا النّسج، وفي هذا الحبك الشيّق. وهو مدح لا تملّق ولا زيف فيه، كما هي عادة المقّري.

4- الغـــــزل:

الغزل لغة العواطف الشّاعرة التي تنساب رقّة وصفاء، ولهفة القلب المتقطّر لوعة وأسى. فمنذ أن تحرّكت الحياة في النّفس البشريّة، سعى الرّجل إلى المرأة يسترضيها بشتّى الأساليب والفنون. واختار لها أعذب الحديث ومعسول القول عازفا على أوتار الأفئدة نغما رقيقا ناعما.

أحمد المقّري، كغيره من المبدعين يمتلك عاطفة جيّاشة، وإحساسا لطيفا تجاه الجنس الآخر. ولهذا لا عجب إن توفّر في مدوّنته شيئا من الغزل الذي اتّسم بقوّة الخيال، ورهافة الشّعور، وطلاوة اللّفظ، ورقّة المقاطع، وأحسن شعره (المزدوجة) طويلة النّفس، والّتي منها[18]: (الرجز)

وبَعْدُ فالحُبُّ حبيبُ النّفْسِ وراحةُ الرّوحِ وأُنْسُ الأُنْسِ
ولُطْفُ طَبْعٍ في الحِجَا والحدسِ وأُسوةٌ تنفعُ للتّأَسِّي
والحُبُّ ليسَ مُدْرِكًا بالحَدِّ

وقال في أيضا[19]: (الخفيف)

ذكّرتْنِي الوُرْقَاءُ أيّامَ أنسٍ سالفاتٍ فبِتُّ أُذْرِي الدّموعَا
ووصلتُ السّهادَ شوْقا لحبّي وغرامًا وقد هجرتُ الهُجوعَا
كيف يخلُو قلبي مِنَ الذّكرِ يوما وعلى حبّهم حنيتُ الضّلوعَا
كلّما أولِع العذولُ بعتْبِي في هواهُم يزدادُ قلبي ولوعَا

فالشّاعر هنا يبثّ لواعج الشّوق والحنين، ويصرّح بتباريح الهوى وما يعانيه من ألم الفراق للأحباب والخلاّن، وما أصعب ذلك عند الإنسان البعيد عن الأهل والخلان.

وفي الماضي والذكرى شجون، وأيّ شجون عندما يبكي المغرم بالدّم والدّموع.

5- الإخوانيّات

احتلّت الإخوانيّات جزءاً كبيراً من شعر المقّري. وقد تبادل الشّاعر مساجلاته الشّعريّة مع بعض الشّخصيّات من المغرب والمشرق، ومع أصدقائه من الأدباء الّذين كانت لهم مكانة بارزة في المجتمع. ومن هؤلاء عبد الرّحمن العمادى مفتي الحنفيّة بدمشق، وقد كتب إليه المقّري مرّة مستهلاّ بالبيتين الآتيين[20]: (السريع)

يا حاديَ الأظعانِ نحو الشآمِ بلّغْ تحيّاتي لتلك الخيامِ
وابدأْ بمفتيها العمادي الرّضَا دامَ به شملُ الهَنا في الْتئامِ

وممّا جاء في الأخوانيات قوله: ولمّا حللتُ دمشق المحروسة، وطلبت موضعا للسّكنى يكون قريبا من الجامع الأمويّ الّذي يُعجز البليغ وصفه وإن ملأ طُروسه، أرسل إليّ أديب الشّام فرد الموالي المدرّسين صاحب أذيال الفخار المولى أحمد الشّاهيني حفظه الله تعالى بمفتاح المدرسة (الجَقْمقية)، وكتب لي معه ما نصّه[21]: (الخفيف)

كنَفُ المَقّريّ شيخي مَقَرّي وإليهِ من الزمان مَفَرّي
كنَفٌ مثلُ صَدْرِهِ في اتِّساعٍ وعلومٍ كالدُّرّ في ضِمْنِ بحر
أيُّ بدرٍ قد أطلع الغربُ مِنْهُ ملأ الشرقَ نورُهُ ؟ أيُّ بدر؟
أحمدٌ سيدي وشيخي وذُخري وسَميّ وفوق ذاك وفخري
لو بغيرِ الأقدام يسعى مَشُوقٌ جئتُهُ زائراً على وجه شكري

العبد الحقير المستعين، المخلص أحمد بن شاهين، انتهى.

فأجبته بقولي:(الخفيف)

أيُّ نظمٍ في حُسْنِهِ حار فِكْري وتحلّى بدُرّه صدرُ ذكري
طائرُ الصّيتِ لابنِ شاهينَ يُنْمي مَنْ بروضِ الندى لهُ خيرُ وَكرِ
أحمدُ الممتطين ذروة مجدٍ لِعَوَانٍ مِنَ المعالي وبِكْرِ
حلَّ مِفْتاحُ فَضْلِهِ بابَ وصلٍ مِنْ مَعاني تَعْريفه دون نُكرِ
يا بديعَ الزمانِ دُمْ في ازديانٍ بالعُلا وازْدِيادِ تجنيس شكرِ

وها هي مساجلة أخرى بين المقّري وشيخه أحمد بن القاضي ترويها لنا كتب الأدباء والمؤرّخين، وقد جاءت كما يلي:

حينما وصل المقّري إلى فاس، وجد شيخه أحمد بن القاضي غائبا عنها، بثغر(سلا)، لأنّه كان– حينذاك– يشغل منصب القضاء هناك. فلمّا عاد منها إلى فاس، وعلم بمقدم تلميذه من تلمسان، أسرع إلى استدعائه لحضور مأدبة أقامها على شرفه. وزوّد رسوله إليه بثلاثة أبيات[22] :(الكامل)

يا سيّدًا إنْ زرتَ عبدًا يومَه في داره فالأمرُ غيرُ بعيدِ
شرّفتَه بحضورِكم لا منقصٍ بحضورِ ساداتٍ بدار عبيدِ
إن زرتَه ونقلتَ أقدام العلى لمحلّه كانت له كالعيدِ

ورد عليه بقوله:(السريع)

القلبُ مِنّي في جَوَى والتهابِ والجسمُ أضْحى عُرضة لانتهابِ
وليلُ فكري مُدْلَهَمٌّ وما أنارَهُ إلاَّ ضِياءُ الشِّهابِ

ثم علّق المقّري على هذه الأبيات بقوله: (وإنّما أجبته ببحر مخالف لأبياته التي هي من الكامل، إشارة أنّي لإجابة دعائه سريع وأنّه كامل...).

وقد استعمل المقّري هنا أسلوب المرح الممزوج بالذّكاء والفطنة، في قوله: (...دعائه سريع وأنا كامل...).

و قال أيضا في شيخه أحمد بن القاضي : ولقيته يوما بالمحلّة المنصورة وكان إذ ذاك الوباء –الطّاعون– فتذاكرنا أوطاننا وأهلينا، وأيّامنا بفاس ولياليا، فقال يخاطبني [23]:(مجزوء الرمل)

يا شهابَ الدّين هلاّ

فقلت:

زرتَ إخوانًا وأهلاً

فقال:

بعدتْ عنّا ديارٌ جمعتْ بالقوم شملاَ

فقلت:

ليتَ شِعْرِي هل نراهم فيعودُ الحزنُ سهلاَ

تضمّنت هذه المراسلات الشّعريّة أغراضاً مختلفة، مثل المديح، والعتاب، والشكوى، والاعتذار، والاستعطاف، والشّوق، والشّكر متّسمة بالصدق.

ونهج أبو العباس في قصائده الإخوانيّة نهج القصيدة العربيّة المحافظة والتقليديّة، فاستهلّ أكثرها بالمقدّمة الطلليّة أو الغزليّة. وأشاد بقصائد مراسليه لغة، وبلاغة، وأدبا حتّى أنّه في تقديرنا بالغ كثيراً في ذلك.

ورأينا في قصائده الإخوانيّة المعاني المتكرّرة المتعلّقة بإظهار المودّة والصّداقة، والتّشبيهات نفسها خصوصاً في الإشادة بشعره أو بشعر من كتبوا إليه، ولاحظنا في هذه المراسلات المتبادلة بين المقّري وغيره أنّها اتّفقت في الوزن والقافيّة، وذلك حسب ما جرت عليه القواعد والمساجلات تقليديّاً في شعر الإخوانيّات.

6- الزّهد

هو وقوف الشعراء أمام باب الله يلتمسون الرّحمة، وتوسّلهم بمقام الرّسول(ص) طلبا لشفاعته يوم القيامة.

لأحمد المقّري طائفة من القصائد الزهديّة نظمها إمّا توسّلا بالنبيّ حين متّع ناظريه بزيارة الرّوضة الطّاهرة في المدينة المنوّرة، وإمّا تبرّكا به. وممّا قاله في الزّهد[24]: (الطويل)

وما أنا عن تحصيل دُنيَا بعاجزٍ ولكِنْ أرى تَحْصيلَها بالدّنيَّةِ
وإنْ طاوعَتْني رقَّةَ الحالِ مرَّةً أبتْ فعلها أخلاقُ نفسٍ أبيَّةِ

وقال في التصوّف والمبادرة إلى التّوبة، وكثرة النّدم، والزّهد في الدّنيا[25]: (السريع)

بادِرْ إلى التَّوبة واستجِنْها فالمرءُ مأخوذٌ بما قدْ جناهُ
وأنتهِزْ الفرصةَ في وقتها ما فاز بالكرم سِوى مَنْ جناهُ

في البيتين لغة مباشرة، فالمتلقي لا يحس بتلك المشاعر التي يحسها الزاهد. فالشاعر لم يمدح الذات الإلهية ولم يبرز قضايا صميمية في الفكر الصوفي، كفكرة الفناء والحديث عن يوم القيامة...

7- الألغـــــاز:

التّلغيز نوع من أنواع الرّياضة الفكريّة والأدبيّة. يتعاطاه الشّعراء والفقهاء للتّرفيه واختبار الذكاء. وكان الملغّز يعبّر عن حادثته بالبيت أو الأبيات ولكنّه لا يلجأ إلى القصيدة الطويلة.

وقد لاغز السّعيد قدّورة، المقّري في لفظ (القوس) نثرا، ومما جاء حول هذا اللّغز ما يلي: (كتب إليّ مفتي الجزائر وعالمها وإمامها وخطيبها الأخ في الله سيدي السّعيد المشهور بقدّورة حفظه الله ملغّزا في (القوس)[26]: (الرجز)

يا بارعًا أرْبى على ذوي النّهَى ولامعًا يسمُو على نجْمِ السّهَى
لفظٌ تراهُ في كتابِ الله أتَى مُثنًّى يا أخَا انتباهِ
ولمْ يُثَنَّ فيه واصطحبْهُ في السّفر المبرورِ تستطبْهُ

فأجابه المقّري بما نصّه: (الرجز)

الحمدُ للهِ الذي ألْهَمَا لحلّ مشكلٍ عرَا وأفهمَا
وصلواتُه على المقرّبِ كَقَابَ قوسيْنِ النّبيّ العربِيّ
ثم الرّضَى عَنْ صحْبه وعتْرته الفائزين بمزايا إثْرتِهِ
ووارثيه علماء الملّةِ السّعداء العامِلين الجلّةِ

ومن الألغاز التي شاعت بين علماء الجزائر لغز (هاج الصّنبر)، الذي امتحن به سعيد قدّورة أيضا زميله أحمد المقّري عندما حلّ (المقّري) بمدينة الجزائر قادما إليها من فاس، وقد عيب على المقّري أنّه لم يفهم الجواب من المرّة الأولى. (والألغاز إنما هي لاختبار الذّكاء وسرعة الإجابة) ولذلك أعاد عليه قدّورة السؤال [27]: (الطويل)

أبدْرا بدَا مِنْ غربنا بجزائر وبحْرا عُبابًا مِنْ نفيس جواهرِ
أُحاجيك يا فخْر الزّمان بلفظة بلفظة أتتْ في مقامِ الرّفعِ دون محاذرِ
فأبْدلْ بالخفض المغيّر وصفه ولا سببَ يبدُو لرؤيةِ ناظرِ
فليس مُضافًا أو بحرْف يجرّهُ ولا تابعَ المخفوضِ أو بمجاورِ
وليس بمُحكِيّ فيقبلُ جرّهُ فرد فأنتَ اليومَ زين المحاضرِ

فكان جواب المقّري الأول: (الطويل)

أتانِي نظامٌ مِنْ فقيه الجزائرِ فحيّيتُهُ إذْ كان أكرمَ زائرِ
أشارَ بهِ، فيما أظنّ، للفظةٍ عراهَا مِنَ الأتباعِ حكم مغايرِ
وذلك مثل (الحمد لله) دائما فكسرُكَ دال الحمدِ ليس بضائرِ
وما كان تأخيرِي جوابكم قِلَى وقديترك المطلوبُ عند الضرائرِ
وعذْرا فإنّ الشّجوَ شتّتَ فكرتِي ولله أشكُو ما تكنّ ضمائرِي

وقد راجعه قدّورة بالأبيات الآتيّة لعدم إدراكه كنه الجواب: (الطويل)

رأيتُ جوابَ الحبرِ خير موازرِ وعيبةُ أسرارِي ومرآةُ ناظرِي
ولكنّهُ عَنْ صرفِ قصدِي نازحٌ لقولِي في نظمِي(ولا بمجاورِ)
ولا فرْقَ بينَ تابعٍ ومجاورٍ بنصّ الدمَامينِي صدورُ الأكابرِ

وحصرهُم التّحريك في عدّ ستّة يدُلّ على الأردافِ يا ذا المآثرِ

فأجابه المقّري من جديد: (الطويل)

حبَا بسلوكٍ مِنْ نفيسِ جواهرٍ إمامٌ بدَا مِنْ نظْمِه كلّ باهرِ
يؤمّلُ تجديدَ الجوابِ لأنّه تقدّمَ قولٌ ليسَ فيه بظاهرِ
فقلنَا أردتَ(الصّنبرَ)، إذ هي لفظةٌ أتتْ بعد حينٍ هاجَ في شعرِ ماهرِ ماهر
ومن يتوهّمُ فليقفْ مع نقلهِ فيبدّلُ بخفضِ الطّرفِ رفعُ المظاهرِ

قال المقّري: وكلامه عن محمّد الوجدي: وأنا بتلمسان المحروسة قبل أن أعمل الرّحلة إلى حضرة الإمامة –حاطها الله– بهذا اللّغز في اسم برنيته (باذنجان)[28]:(السريع)

اسمُ التي تيَّمني حُبُّها تصحيفُه تربيَّةٌ للهَوَى
فبعضُها وصفُ امرئٍ صالحٍ لوالديْه طائعٌ ما غَوَى
وبعضُها الآخرُ مِنْ فعلها لكنْ بتصحيفٍ يزيد الجَوَى

فوقع الجواب منّي بما نصّه:(السريع)

يا كاتبًا على الكمال احتَوَى وبارعًا من البيانِ ارتَوَى
لغزُكم تصحيفُه إنْ بدَا يزينُه بِشْرٌ عليه انطَوَى
فالبعضُ وصفٌ لمسيح الهوَا والبعضُ مثلُ مصدرِ مَنْ نوَا
تصحيفُه تيهٌ فعِشْ آمنًا وقاكَ ربّي كلّ ما يَجْتوا

وقال ملغّزا في الورد[29]:(مجزوء الوافر)

إذا ما شئتَ معرفةً بما حارَ الورَى فيهِ
فخذْ خمْسا لأربعةٍ ودعْ للثّوبِ وافيهِ

وهكذا كانت الألغاز وسيلة من وسائل الاتّصال بين الشعراء، ووسيلة ترفيه عن النّفس، وفنيّة جيّدة من فنّيات الاختبار.

وخلاصة القول، يتّضح لنا أنّ المقّري يعدّ من الأدباء الذين ساهموا في تطور الشعر الجزائري في عصر جفّت فيه القرائح، وقلّ فيه الإبداع بمختلف جوانبه، وذبل فيه الشّعر

والنّثر معا. ويكفي أنّ من الّذين اعترفوا بذلك المؤرّخ والأديب الجزائريّ عبد الرّحمن الجيلالي في كتابه(تاريخ الجزائر العام). كما عدّه الأستاذ الشّرايبي أيضا شاعرا فحلا. وشعره يعد سجلاّ تاريخيا للأدب الجزائري في العهد العثماني.

الهوامـــش و المراجـع

(1) محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، ص238.

(2) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب، ج3، ص198.

(3) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص225.

(4) أحمد بن محمد المقّري: أزهار الرياض، ص6.

(5) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب، ج1، ص26.

(6) المصدر نفسه، ج1، ص32.

(7) المصدر نفسه، ج1، ص14.

(8) المصدر نفسه، ج1، ص15.

(9) المصدر نفسه، ج1، ص45.

(10) أحمد بن محمد المقّري: أزهار الرياض، ص8.

)11(أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب، ج1، ص81.

(12) المصدر نفسه، ج1، ص49.

(13) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، ج2، ط6، دار المعارف، مصر، ص273.

(14) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب،ج1، ص 55و56.

(15) المصدر نفسه، ج3، ص196.

(16) المصدر نفسه، ج1، ص110.

(17) أحمد بن محمد المقّري: أزهار الرياض، ص18.

(18) أحمد بن محمد المقّري: المزدوجة، المطبعة الأزهرية الحجرية، القاهرة، 1399هـ، ص2و3.

(19) محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص210.

(20) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب، ج2، ص447.

(21) محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص210.

(22) أحمد بن محمد المقّري: روضة الآس، ص252.

(23) المصدر نفسه، ص260و261.

(24) أحمد بن محمد المقّري: نفح الطيب، ج1، ص74.

(25) محمد الصغير اليفراني: صفوة ما ننتشر، ص74.

(26) أحمد بن محمد المقّري: الرحلة إلى المغرب والمشرق، تحقيق: محمد بن معمر، مكتبة الرشاد، الجزائر،2004 ، ص74.

(27) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1981، ص299و300.

(28) أحمد بن محمد المقّري: روضة الآس، ص85و86.

(29) موسى بن محمد نويوات: المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ط3، ص118.